قراءة فى أسباب سقوط
الإمبراطورية الرومانية فى الغرب

أ.د. ليلى عبد الجواد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

كانت الإمبراطورية الرومانية أعظم وحدة سياسية وحضارية عرفها التاريخ إذ لم يقدر لإمبراطورية أخرى فى التاريخ القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته هذه الإمبراطورية من قوة وعظمة واتساع. فقد بلغت أقصى اتساع لها فى القرنين الأول والثانى للميلاد بداية من عهد تراجان (٩٨-١١٧م) ونهاية بعصر ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، وامتدت حدودها من المحيط الأطلسى غرباً حتى نهر الفرات شرقا فشملت من الشرق : البلقان – آسيا الصغرى – أعالى بلاد ما بين النهرين فضلاً عن الشام ومصر، فى حين شمل الجزء الغربى منها : بريطانيا – بلاد الغال (فرنسا الحالية) – إيطاليا – إسبانيا وشمال أفريقية.

وضمت بين جنباتها عدة بحار هى : المتوسط – الأسود وبحر إيجه. وعدة أنهار هى : الراين – الدانوب – النيل – الفرات. وقد ساعدت هذه الأنهار وتلك البحار على ربط مختلف أجزاء الإمبراطورية، كما ربطت بين أطراف الولايات التابعة لها، هذا عن الاتساع أما عن عظمة الإمبراطورية خلال هذه الفترة فكانت ترجع لأسباب عدة منها :

أولا : أن السلطة المركزية استطاعت أن تحكم سيطرتها على ذلك المسطح الجغرافى العريض، مترامى الأطراف، والذى كان يضم بين جنباته

شعوباً وأمماً مختلفة الأصول والحضارات والديانات واللغات، مع قدرتها على استيعاب العديد من الشعوب العريقة ذات الحضارات القديمة.

ثانياً : أن نظام الإمبراطورية السياسي كان مزيجا بين النظام الملكى الاستبداى والنظام الجمهورى الدستورى، أى مزيج بين الزعامة العسكرية الضرورية للحفاظ على سلامة الإمبراطورية وأمنها، وبين نظام الحكم الجمهورى الذى يقر رغبة المواطنين فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة وبأهميتهم فى المجتمع. وفى ظل هذا النظام تركزت معظم السلطات فى يد الإمبراطور، بعد أن كانت فى يد كبار الموظفين، وظل السناتو (مجلس الشيوخ) محتفظا بهيبته ومكانته القديمة، إلا أن سلطاته التشريعية والإدارية والقضائية تناقصت بصورة واضحة.

ثالثاً : كانت الإمبراطورية تمثل بناءاً اجتماعياً سليماً، مترابط البنيان، فكانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام إدارى، امتاز بالكفاية والدقة؛ وفى نظر الطبقات الدنيا تقوم بحماية الأرواح والممتلكات فى ظل قانون عادل، دون التدخل فى حياة الناس اليومية أو العمل على تغيير لغاتهم ومعتقداتهم ونظمهم الاجتماعية.

ولكن مع خولتيم القرن الثانى للميلاد وبواكر القرن الثالث الميلادى بدأت تنتاب الإمبراطورية أزمات فى شتى المجالات والميادين السياسى منها والاقتصادى والاجتماعى، وسرعان ما أخذت فى الضعف والانحلال بعد القوة والعظمة والاتساع، ومن هنا بدأت تخطو أول خطواتها نحو السقوط والانهيار فى نهاية الأمر.

وقد اختلفت آراء المؤرخين ونظرياتهم حول أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، فمنهم من يرجع أسباب السقوط إلى عوامل داخلية، ومنهم من يرجعها إلى الأخطار الخارجية التى هددت

الإمبراطورية وخاصة خطر القبائل الجرمانية. ومنهم من يكتفى بذكر عامل واحد سواء أن كان داخلياً أو خارجياً ليجعله سبب رئيسى للسقوط، ومنهم من يذكر أكثر من عامل أو سبب.

ظهرت العديد من النظريات حول سقوط الإمبراطورية الرومانية، واتضح من قراءة هذه النظريات مجتمعة أن هناك عوامل كثيرة متشابكة ومتداخلة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر، بعضها جوهرى وبعضها الآخر ثانوى، بعضها داخلى والآخر خارجى، هيأت هذه العوامل جميعها الجو الملائم لانهيار الإمبراطورية ثم سقوطها فى الغرب. ومن ثم فقد وجدت تفسيرات مختلفة ومتباينة، ونظريات متنافرة حول سقوط الإمبراطورية وبالأحرى كما يقول المؤرخ جونز Jones، فى كتابه عن (اضمحلال العالم القديم) "كان لكل عصر تفسيره لاضمحلال الإمبراطورية وسقوطها".

يتضح من خلال هذه النظريات أن سقوط الإمبراطورية لم يكن نتيجة عامل واحد سواء أن كان داخلياً أم خارجياً، ولكن تضافرت عدة عوامل داخلية وأخرى خارجية لتضع نهاية لذلك الصرح العظيم الذى بدأ السوس ينخره منذ القرن الثانى الميلاد. ولنكشف النقاب عن هذه العوامل:

أولاً العوامل الداخلية ، وهى جملة من العوامل منها السياسى والاجتماعى والدينى والاقتصادى أما عن **العامل السياسى** : فقد بدأت الإمبراطورية تعانى من التدهور السياسى مع بواكير القرن الثالث الميلادى حينما انعدم النظام، وقويت شوكة القادة العسكريين، وأصبحوا يتحكمون فى تعيين الأباطرة وفى عزلهم حتى طغى سلطانهم على سلطان الحكومة، وترتب على ذلك أن أصبح الأباطرة العوبة فى أيدى رجال الجيش بعد أن كان الجيش خادما مخلصاً للإمبراطور لذلك ضعفت سلطة الإمبراطور، وصارت البلاد مرتعا للجند والقادة العسكريين.

-تعرض عدد من الأباطرة للعزل والقتل قبل أن يمضوا فى الحكم فترة

طويلة لدرجة أنه خلال خمسين عاما (٢٣٥-٢٨٥م) تولى العرش ١٨ إمبراطوراً، كان مصيرهم جميعاً القتل فيما عدا واحد انتهت حياته نهاية طبيعية بالموت.

-قفز القادة العسكريون بدورهم إلى العرش وسط هتافات جنودهم، وغالبية هؤلاء لم تكن لديهم صورة واضحة عن المثل الأعلى الإمبراطور ولا عن تقاليد الصفوة التى عرفها العالم القديم. فقد ابتعد هؤلاء الأباطرة العسكريين تماما عن مظاهر الحكم الجمهورى، وحلوا محله حكماً استبدادياً، يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الإمبراطور والضغط على أهالى الإمبراطورية.

- تصدع نظام الحكم فى الولايات كذلك، إذ لم تلبث الفرق العسكرية فى مختلف الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق رغبتها لا وفق رغبة الإمبراطور والسناتو، كذلك قامت بعض الولايات فى الشرق والغرب بحركات انفصالية عن جسد الإمبراطورية، وعم الفساد الولايات، وأصبح حكامها على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة المركزية . وحاولت الحكومة علاج ذلك عن طريق تصغير مساحة الولايات بتقسيمها، وفصل السلطتين المدنية والعسكرية فيها، ولكن كانت النتيجة تزايد عدد الولايات حتى بلغ من ٤٦-١١٩ ولاية فى عام ٣٢٧م، مما أصبح من المتعذر معه على الحكومة المركزية أن تحكم السيطرة على هذا العدد الكبير من الولايات.

-إهمال العاصمة روما فى الفترة الأخيرة من حكم الرومان، فبعد أن ظلت روما عاصمة العالم الرومانى القديم ورمزاً لوحدته فترة طويلة من الزمن إذ بها تفقد أهميتها وبريقها. إذ بدأ الأباطرة يهملونها فى الفترة الأخيرة وتركوها خاوية على عروشها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف بعد أن أصبحت أسوء مقر لإقامة الأباطرة، فمنهم من أقام فى ميلان ومنهم

من اختار نيقوميديا مقراً له. وعندما تولى قسطنطين العرش قام بتأسيس القسطنطينية على مضيق البوسفور واتخذها مقرا للأباطرة، ولتكون بمثابة روما الجديدة Nova Roma، خاصة بعد أن جذبت ثروات الشرق وسحره أباطرة الغرب، فضلا عن أن روما لم تعد عاصمة مأمونة فكثيراً ما كانت تتعرض لضربات الجرمان، كما كانت قلعة للوثنية فى وقت بدأت فيه المسيحية تأخذ طريق الظهور والانتشار بشكل كبير فى الشرق؛ ومن ثم بدأ نجم روما يأفل، ليضئ نجم القسطنطينية والجناح الشرقى من الإمبراطورية.

أما عن أصحاب **النظرية الاجتماعية والفكرية** فيمكن تلخيص الأسباب الاجتماعية لانهيار الإمبراطورية كما يرونها على النحو التالى :

أولاً : الانحلال الأخلاقى وتفشى الأمراض الاجتماعية بين الرومان شعبا وحكاماً وذلك بسبب الثراء وحياة الرفاهية والترف، التى عاشها أبناء الطبقات العليا والوسطى، إذا لم يحاولوا استغلال ما جنوه من ثروات وأموال طائلة استغلالاً جيداً، بل انغمسوا فى شهواتهم وملذاتهم مما أفقد الإمبراطورية عاملاً هاماً من عوامل قوتها.

ثانياً : النزاع بين طبقات المجتمع خاصة بين سكان الريف، وقد ساندهم الجيش وزعماءه وبين الطبقة الارستقراطية من أصحاب الاقطاعات الكبيرة، التى كانت تعيش عادة فى المدن، ويساندها كبار الموظفين. وانتهى هذا الصراع بانتصار الجيش ودمار الارستقراطية القديمة تحت أقدامه، إلا أن هذه الحرب الطبقية لم تؤد إلى نصرة الفلاحين، فقد استمرت أوضاعهم المزرية، بل ازدادت حالتهم سوء على سوء.

ثالثاً : تناقص عدد سكان الإمبراطورية وتضاءل العنصر الرومانى وذلك بسبب الحروب الأهلية، والأوبئة والطواعين، التى احتاجت معظم أرجاء الإمبراطورية، إلى جانب التسمم الناجم عن كثرة استخدام

الرصاص فى أوانى الطهى وأنابيب المياه. علاوة على ما حدث بين أبناء الطبقات المتعلمة من تحديد النسل، ثم سرعان ما سرت هذه الفكرة بين الطبقات الدنيا والفلاحين والصناع وذلك حتى لا يرث أبناؤهم حرفهم ومهنهم خاصة بعد صدور قرار فى القرن الرابع يجعل الحرف وراثية، حتى لا يفر أصحابها من الضرائب. وأخيراً كان تأخير سن الزواج والامتناع عنه عاملاً من عوامل قلة عدد السكان.

وقد أدى هذا النقصان فى عدد السكان فى الإمبراطورية إلى وجود خلل كبير فى معظم مناحى الحياة كما أصاب أجهزة الإمبراطورية بالشلل التام.

وهناك من يرى أن المجتمع الرومانى كان قد جف فى الفكر، واعتل خلقاً وروحاً، فقد أمسى نظام التعليم عقيماً فى شتى أرجاء الإمبراطورية يهتم بالدرجة الأولىٰ بالبيان والخطابة، وأضلع بهذه المهمة الأساتذة الإغريق، ومنذ تأسيس القسطنطينية وافتتاحها فى ١١ مايو ٣٣٠م واتخاذها عاصمة للقسم الشرقى من الإمبراطورية، بدأ أثر الثقافة اليونانية يقل فى القسم الغربى للإمبراطورية، وعلى التدريج نسى الناس فى هذا القسم اللغة اليونانية، وأبرز مثال على ذلك ما ذكره القديس أوغسطين نفسه، إذ يعترف أنه رغم قراءته أفلاطون وتشبعه بفلسفته إلا أن معرفته باليونانية ظلت هزيلة. هذا على عكس القسم الشرقى من الإمبراطورية الذى قام على أسس الحضارة اليونانية وظل اللسان اليونانى به حياً.

وعلى هذا فقد كان تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم اليونانى يبتعد فيه عن العالم الرومانى رويدا رويدا، حتى أمست وحدة الإمبراطورية لا تعدو أن تكون أملاً بعيد المنال، فقد اندثرت المعرفة باللغة اليونانية وآدابها فى الغرب، حتى إذا ما جاء القرن الثالث كف المسيحيون الرومان عن استخدامها فى صلواتهم، بل لم يلبث أن رامها الرامون بأنها

منبع الهرطقة والكفر. وعكف الناس فى الغرب على دراسة المؤلفين اللاتين، ونسوا اللغة اليونانية، وأشعار هوميروس ودرامات اخيلوس، وأضاعوا بذلك مفتاح الهداية إلى أصول الثقافة القديمة وكنوزها، وطوى النسيان اللغة اليونانية فى غرب أوربا حتى القرن الخامس الميلادى كما يذكر فشر فى كتابه "تاريخ أوربا فى العصور الوسطى".

وهناك من المؤرخين المعاصرين والمحدثين من جعل **ظهور المسيحية وانتشارها** فى الإمبراطورية سبباً فى سقوطها فيذكر المؤرخ المعاصر (زوسيموس Zosimus) – من كبار مؤرخى القرن الخامس الميلادى وصاحب كتاب "التاريخ الجديد – يذكر أن : "المسيحية هى المسئول الأول عن تردى الأحوال فى الإمبراطورية الرومانية، وأن الإمبراطور قسطنطين العظيم هو المسئول الأول كذلك عن سقوط الإمبراطورية، لأنه دحر الوثنية وأحل المسيحية محلها، وأعلن زوسيموس كذلك أن سقوط الإمبراطورية فى الغرب جاء نتيجة لغضب الآلهة الوثنية التى صنعت روما وبنت عظمتها".

ويؤيد هذه النظرية المؤرخ جيبون – صاحب كتاب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها – وهو مؤرخ إنجليزى محدث- ويتخلص رأى جيبون فيما يلى :

١- أن المسيحية قتلت الفضائل التى كان يتحلى بها الرومانى القديم، وثبطت من روحه المعنوية، وحولت الشعب الرومانى إلى شعب سلبى انهزامى، وذلك بتعاليمها القائمة على الاستكانة والتسليم بالأمر الواقع مع عدم الانهماك فى الشئون الدنيوية.

٢- أنها كانت فى البداية – أى المسيحية – معول هدم لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية. إذ كانت تدعو إلى الكفاف والرزق اليومى فى أبسط أشكاله، وعدم تولى الوظائف الحكومية تفاديا للخطيئة، كما أنها كانت تدعو إلى السلم ودرء العنف والحروب.

٣- أن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة والسلطات الحكومية من ناحية أخرى أدى إلى حالة من الفوضى، وحول جهود الأباطرة من المعسكرات إلى المجامع الدينية، كما أنها مسئولة عن تفكك عرى الوحدة الوطنية مما أدى إلى انقسام الإمبراطورية وتفككها.

٤- وفى رأى جيبون أيضا أن الرهبانية (*) جذبت إليها آلاف من أبناء الإمبراطورية القادرين على العمل فى وقت كانت فيه الإمبراطورية فى حاجة ماسة إلى طاقاتهم، كما أنها شجعتهم على الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية، فى الوقت الذى كان فيه بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح العسكرية، مما جعل انتصار المسيحية ايذانا بالقضاء على روما.

تصدى لنظرية زوسيموس وجيبون وجوتز وغيرهم مؤرخون معاصرون ومحدثون كذلك فيأتى على رأس المعاصرين (القديس أوغسطين ٣٥٤-٤٣٠م) فقد وضع كتاب بعنوان "مدينة الله" قصد به الدفاع عن المسيحية ضد التهم الموجهه لها، وقد أكد فيه على :

أولاً : أن سقوط روما جاء نتيجة الإرادة الآلهية، التى تدير الكون وتوجه مصائر البشر، حتى تنتصر مملكة الله الأبدية، وهذا مصير كل الدول والبشر.

ثانياً : أن روما الآثمة سقطت لكى تمهد الطريق لانتصار مدينة الله.

ثالثاً : أظهر أن انتشار المسيحية فى الإمبراطورية كان سبباً فى نجاه هذه الإمبراطورية وليس سبب انهيارها، كما أن المسيحية أثرت تأثيراً طيباً فى الحياة الرومانية.

وانبرى آخرون من المحدثين للرد على هجوم جيبون وغيرهم على

(*) الرهبانية هى العزلة عن المجتمع بما فيه من متاع والعيش عيشة زهد وتقشف وانقطاع للعبادة والصلاة والتأمل تقربا إلى الله تعالى.

المسيحية وعلى رأس هؤلاء المؤرخ بينز Baynes فى كتابه "اضمحلال القوة الغربية وأسبابه" وغيره فقد ذهبوا إلى :

- أن المسيحية كانت كسبا حقيقيا للإمبراطورية الرومانية، وأنها رسالة خير وإصلاح قصد بها صالح الإنسانية، ففى الوقت الذى كان المجتمع الرومانى قد وصل فيه إلى درجة كبيرة من الانحلال الأخلاقى، ظهرت المسيحية لتعود الناس على قيم جديدة، إذ كانت تدعو إلى مبادئ سامية فى مقدمتها المحبة، المساواة، الإخاء، السلام، التضحية، ومن ثم تركت المسيحية أثراً طيباً فى أخلاق شعوب الإمبراطورية.
- أن المسيحية هى التى حولت الجرمان من أجلاف برابرة بثقافتها الإنسانية والحضارية – إلى أناس متحضرين وملتزمين وبإخلاق ومبادئ إنسانية كسرت شوكتهم وحدت من بربريتهم.
- أن المسيحية كانت وسيطاً هاما فى نقل الحضارة الرومانية من جيل إلى آخر، وفى الحفاظ على التراث الرومانى القديم.
- لم تقف الكنيسة موقف المتفرج من مشاكل الإمبراطورية بل على العكس وقفت إلى جانب الأباطرة ساعة الخطر، وتوسطت بينهم وبين الشعوب الغازية، كما مدت يدها إلى المحرومين خلال المجاعات والأزمات الاقتصادية والأوبئة، التى هددت الشعب الرومانى بالموت.

أما أصحاب **النظرية الاقتصادية** فيرون أن انهيار مثلث الاقتصاد أدى إلى تدهور الإمبراطورية ثم إلى سقوطها : فالبنسبة للزراعة يرى أنصار هذا الفريق أن تدهور الإمبراطورية يعود إلى :

١- التقلبات المناخية وما أعقبها من سيادة كثير من فترات الجفاف ، فقد سجلت الإحصائيات خلال الفترة من القرن الثالث – الخامس الميلادى نقصا متزايداً فى نسبة هطول الأمطار، مما أدى إلى الجفاف والمجاعات، إلى جانب إنهاك التربة فى إيطاليا والولايات التابعة لها،

وتحولها إلى مراع ثم إلى أرض جرداء. مع ملاحظة أن الدمار الزراعى – لم يحل بأقاليم الإمبراطورية كلها – فهناك كما يرى البعض بلاد الغال ومصر ظلت الزراعة بها مزدهرة حتى القرن الخامس الميلادى، وهو القرن الذى سقطت فيه الإمبراطورية.

٢- إهمال مشروعات الرى مما أدى إلى تفاقم خطر المستنقعات التى أصبحت بؤراً للملاريا التى حصدت أرواح الكثير من الفلاحين والعبيد، الطاقة الأساسية لأعمال الزراعة، وعانت الإمبراطورية بالتالى من نقص فى الأيدى العاملة.

٣- الاعتماد على وسائل بدائية فى الإنتاج الزراعى مما جعل العمل مرهقاً والمحصول ضئيلاً بينما الضرائب باهظة.

٤- أثقل كاهل الفلاحين بالضرائب الكثيرة سواء إن كانت نقدية أم عينية، وعجز الفلاحون عن الدفع لسوء الأحوال المناخية مما دفعهم إلى :

– رهن أراضيهم أو التنازل عنها لكبار الملاك مما نتج عنه نمو الضياع الكبيرة أو الفرار والهجرة إلى مناطق القلاع والحصون طلبا للحماية من قسوة جامعى الضرائب.

وكانت النتيجة فى جميع الحالات أن خوت القرى على عروشها، وخلت من فلاحيها، ولم يوجد من يقوم بزراعة الأرضى، مما أدى إلى خرابها وتأثر الاقتصاد تأثراً شديداً.

وتأثرت الصناعة بالتدهور الذى أصاب الزراعة، خاصة الصناعات القائمة على المنتجات الزراعية الواردة من مختلف الأقاليم، لذلك لم يعد فى إيطاليا سوى الصناعات القائمة على المنتجات المحلية فقط.

– كانت الصناعات فى معظمها بدائية، الغرض منها اشباع الحاجات الأولية وليس المتاجرة مما أدى إلى خراب اقتصاد الإمبراطورية يكفى أن تعلم أن نسج ثوب واحد من الصوف كان يستغرق مجهود شهر من العمل

الشاق، ومن ثم فإن الاعتماد على العاملة اليدوية دون تطـوير وسـائل الصناعة إدى إلى تدهورها.

- صدور قانون فى بدايات القرن الرابع الميلادى يجعل الحرف وراثيـة، بمعنى أن أبناء الخباز مثلا لابد أن يستمروا خبازين إلى الأبـد، وأبنـاء بائعى اللحوم لابد وأن يصبحوا قصابين أيضا رغبوا أم كرهوا. ونتيجـة لذلك عزف أصحاب الحرف عن الإنجاب كلية، حتى لا يعانى أبنـاءهم من نفس مصيرهم التعس، كما أن هذا القانون ساهم فى قتـل الإبـداع والخلق، وولد روح التذمر نتيجة الضرائب الباهظة رغم قلة الإنتاج.
- احتقار الرومان لأعمال الصناعة والحرف والمهن المختلفـة، حتـى أن السلطات الرومانية منعت الطبقات العليا بشكل قطعى من ممارسة تلـك الأعمال، لأنها شيمة العبيد ولا تليق بالسادة، لذلك لم تكن هنـاك رغبـة إبداعية لتحسين أحوال الإنتاج الصناعى.

وليت الحال اقتصر على تدهور الزراعة والصناعة بل تعداه إلى مجال التجارة :

ويظهر ذلك من خلال ما يلى :-

(١) عانت الإمبراطورية من انهيار شبكة الطرق البرية والبحرية والنهريـة، التى ربطت بين أجزائها وساعدت من قبل على تنشيط حركة التجـارة، كما أن الطرق التجارية لم تعد مأمونة بسبب كثرة الحـروب الأهليـة، وتعرض القوافل التجارية للصوص وقطاع الطرق، الذين نهبوا كل مـا تصل إليه أيديهم من بضائع وسلع.

(٢) تدهور مركز روما التجارى الدولى المرموق بسبب فقدها السيطرة على الطرق الدولية للتجارة، نتيجة لظهور الفرس كقوة جديـدة فـى منطقـة الخليج الفارسى والشرق، ونتيجة لمزاحمة طريـق الـراين – الـدانوب ومنافسته لطريق الخليج الفارسى – البحر المتوسط وظهور القسطنطينية

كمنافس لروما من حيث الموقع الممتاز فى قلب العالم القديم، فضلاً عن كونها عاصمة مأمونة.

(٣)لم تستند الإمبراطورية فى اقتصادياتها إلى أسس سليمة البتة، فلم تسع لكسب أسواق خارجية جديدة من أجل انعاش التجارة، إنما كانت سياستها تستهدف تسليم الولايات التابعة لها لأصحاب النفوذ والسلطان من الرومان، ومنهم الفرسان والقناصل الضالعون فى أفانين الربا وفحشه، ليجنوا منها ثروات طائلة، تعود آخر الأمر إلى جيوب النفر القليل من الفرسان وطبقة السناتو.

الأزمة المالية

أما عن التدهور الخطير – كما يرى البعض – الذى أدى إلى شلل تام للحياة الاقتصادية فى الإمبراطورية، فكان انخفاض قيمة العملة، نتيجة لنقص المعادن الثمينة كالذهب والفضة، مما اضطر الأباطرة إلى تزييف العملة بإضافة بعض المعادن الرخيصة إليها، فخلطوا الذهب بالفضة، والفضة بالنحاس، والنحاس بالرصاص وهكذا. لذا انحطت قيمة العملة وقلت درجة تفاوتها، واهتزت ثقة المتعاملين بها، واقتصر التداول على العملة الرديئة عملا بقانون (جريشام) الحديث القائل بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق. ارتفعت لذلك الأسعار ارتفاعاً جنونيا، مما ترتب عليه حدوث نوع من التضخم المالى. حاول بعض الأباطرة حقيقية ومنهم دقلديانوس حل هذه الأزمة المالية عن طريق التوسع فى الاقتصاد العينى، فصار الموظفون يتقاضون رواتبهم قمحا وسلعا وملابسا بدلاً من النقود، وأصبح دافعو الضرائب يدفعونها محاصيلاً أيضا، إلا أن هذا الإجراء زاد الأمر سوءا، إذ فشل دقلديانوس فى محاولته إرجاع قيمة العملة إلى ما كانت عليه أيام أغسطس، كما أدى إسرافه فى محاولاته إصدار عملة خالصة العيار إلى ارتفاع الأسعار، ولمواجهة هذا الموقف أصدر فى عام ٣٠١ قائمة أسعار

حدد فيها أسعار كل سلعة على حدة ، مع تحديد حد أعلى وآخر أدنى لكل سلعة، ولكنها لم تصادف أية نجاح. وترك دقلديانوس لخلفه قسطنطين العظيم مهمة وضع العملة الإمبراطورية على أساس ثابت، ونجح قسطنطين فى إصدار عملته التى عرفت باسم "الصولد Solidus" وأن عانى من مشكلة الحصول على الذهب لسك هذه العملة.

جملة القول أن الحالة الاقتصادية المتدهورة لعبت دورا كبيرا فى انهيار الإمبراطورية الرومانية.

وقبل الحديث عن الأخطار الخارجية تجدر الإشارة إلى أن هناك ما يعرف **(بالنظرية العضوية أو التفسير البيولوجى** (أى العضوى) لإنهيار الإمبراطورية وسقوطها. وهذه النظرية تشبه الإمبراطورية بالكائن الحى ، لابد وأن يمر بمراحل هى مرحلة الولادة ثم الطفولة ثم الشباب ثم المشيب حيث ينتهى كل شئ بالموت، ويصرح أرباب هذه النظرية كذلك بأن "خلايا الإمبراطورية الرومانية وأنسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة كأى شئ حى".

ثانياً : الأخطار الخارجية التى تعرضت لها الإمبراطورية وأهمها (خطر القبائل الجرمانية) فقد حمله عدد من المؤرخين الجرمان دون غيرهم تبعة انهيار الإمبراطورية وسقوطها، فى حين انبرى عدد آخر من المؤرخين لدفع هذه التهمة عنهم. فمن هم الجرمان ؟ وكيف دخلوا الإمبراطورية وعبروا أراضيها ؟

تحدث المؤرخ الرومانى الشهير تاكيتوس عن الجرمان فى مؤلفه الشهير (جرمانيا Germania) أو "بحث فى أصل الشعوب الجرمانية، ووطنها وطرق معيشتها" وذكر أنهم قبائل وشعوب كثيرة لا حصر لها، وعددً جانبا كبيراً من أسمائهم. أما موطنهم الأصلى فهو البلاد المحيطة ببحر البلطيق وجزره وأهمها اسكندناوه، وبلادهم – كما يذكر تاكيتوس : "بلاد كئيبة، قاحلة، مناخها بالغ القسوة، وليس فيها ما يسر البصر أو يمتع الأذن، بلاد

مليئة بالغابات والأحراش، وهى رطبة، ومعرضة للرياح الشديدة..".

أما عن ملامحهم فهم يحملون – كما يذكر تاكيتوس أيضا ملامح واحدة تتمثل فى : العيون الزرقاء اللامعة، الشعر الأشقر أو الأحمر، البنيان الضخم والخدود الوردية . وهم مقاتلون أشداء، لا يعرفون الهزيمة، والحرب رياضة الجرمان المفضلة، ومنها يجنون الغنائم والأسلاب، ويؤمن الجرمانى إيماناً قاطعا أن القتال أشرف السبل للحصول على العيش، فلا وقت عنده لجر المحراث وتسوية الأرض، فهذا عمل العاجزين، وشعار الجرمانى : "وداعا بالدم لا بالعرق يأتى الخبز.. الخبز الوفير". فإذا فقد أحدهم درعه يعد ذلك عاراً كبيرا، ومن يشاع عنه الجبن فى القتال يُقوم على شنق نفسه هروبا من العار، إذ كانت عقوبته عندهم هى: دفنه فى مستنقع وحل مغطى بأخشاب مغراه بالطمى، وذلك ليكون درسا لغيره.

دخل الجرمان أراضى الإمبراطورية على مرحلتين (الأولى) سلمية . و(الثانية) حربية.

بدأ الجرمان يتحركون نحو الإمبراطورية فى القرن الأول للميلاد، فقد جذبتهم إليها بنظامها المستقر، وخيراتها الوفيرة، وحضارتها الزاهرة، واستقروا فى بداية الأمر فى المنطقة الواقعة بين الألب ونهر الراين، وهى المنطقة التى أطلق عليها اسم (جرمانيا) نسبة إلى اسم أول قبيلة من هذه القبائل عبرت هذه المنطقة، ومن ثم فاسم الجرمان اسم لقبيلة وليس اسم جنس أو سلالة.

وفى القرن الثانى الميلادى بدأ الجرمان يتسربون إلى جوف الإمبراطورية فرادى وجماعات للبحث عن مورد للعيش، فعملوا فى الحقول والمناجم، وفى حمل السلاح أثناء المعارك ، كما خدموا فى الأسطول. ثم بدأت الإمبراطورية تفتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان، فاستخدمتهم كجند فى بعض الفرق العسكرية ، ومنحتهم الأراضى ليقيموا فيها داخل

الإمبراطورية ، كما استخدمتهم كجند مرتزقة فى الجيش، ومنحهم الأباطرة فرصا للترقى فى سلكه، وتولى المناصب العسكرية الكبيرة، حتى وصل ضباط منهم إلى أعلى المناصب العسكرية فنمهم من وصل إلى مرتبة (قائد القوات الرومانية) ووصل الأمر إلى أبعد من ذلك خلال القرنين الثالث والرابع الميلادى إذ حدث تفاعل اجتماعى وتزاوج بينهم وبين الرومان، وأثر كل طرف فى الآخر.

ثم بدأت مرحلة دخول الجرمان الإمبراطورية حربيا وبالتحديد فى عام ٣٧٥م، إذ اتخذت هجماتهم على الإمبراطورية منذ ذلك التاريخ طابع الإغارات الحربية العسكرية، واستمرت هذه المرة حتى القرن السادس للميلاد. واستطاع الجرمان خلال هذه المرحلة اجتياح أقاليم الإمبراطورية، وتأسيس ممالك جديدة لهم على حسابها، فانتزع :

- الوندال ولاية افريقية (شمال أفريقيا).
- واحتل القوط الغربيون والبرجنديون اسبانيا فضلا عن جنوب بلاد الغال (فرنسا) ،
- وعبر الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الالزاس.
- وعبر الفرنجة الراين الأدنى وأسسوا مملكة لهم فى غاليا.
- وسقطت بريطانيا فى يد السكسون.

وهكذا وقع القسم الغربى من الإمبراطورية تحت أقدام القبائل الجرمانية مما غير صورة العالم القديم، وجعل البعض يحملهم تبعة انهيار الإمبراطورية فى الغرب. أما القسم الشرقى من الإمبراطورية فقد نجا من تخريب الجرمان وضرباتهم وذلك لما كان يتمتع به من ثراء مادى، وثراء بشرى وقوة روحية.

ومن الإنصاف القول بأن الجرمان ليسوا وحدهم المسئولون عن انهيار الإمبراطورية لأن ازدهار الإمبراطورية المادى والحضارى كان يسير فى

طريق الأفول قبل أن يقتحم الجرمان حدودها حربيا، كل ما فعله هؤلاء الجرمان هو : أنهم عجلوا بأمر كان محتوماً، فهذه ارادة الله ولا راد لحكمة وقضائه، كما يذكر البعض.

من الطريف أن المؤرخين لم يختلفوا فقط فى تحديد أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية ولكنهم اختلفوا أيضاً فى تحديد تاريخ سقوطها اختلافا كبيرا ومحيرا.

فيرى البعض أن انتصار قسطنطين العظيم على خصمه ماكسنتيوس فى معركة جسر ملفيان بإيطاليا، عام ٣١٢م، ثم اعترافه بالمسيحية كإحدى الديانات المصرح بممارستها فى الإمبراطورية عام ٣١٣م، ثم نقله عاصمة الإمبراطورية من روما على ضفاف نهر التبير إلى القسطنطينية على ضفاف البوسفور فى عام ٣٣٠م، ورغبته الشديدة فى الاتجاه نحو لشرق، كان فاتحة مرحلة جديدة أخذ العالم اليونانى والعالم الرومانى يبتعد فى أثنائها كل منهما عن الآخر رويدا رويدا، وبدأ تأثير اللغة اليونانية يقل فى القسم الغربى من الإمبراطورية، وبالتدريج نسى الناس اللغة اليونانية. فالقديس أوغسطين نفسه يعترف – كما سبق أن ذكرنا– أنه رغم قراءته أفلاطون وتشبعه بفلسفته إلا أن معرفته باليونانية ظلت هزيلة، إذ عكف سكان الغرب على دراسة المؤلفين اللاتين، ونسوا اللغة اليونانية وأشعار هوميروس درامات اخيلوس. أما فى القسم الشرقى حيث الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) فقد ظل اللسان اليونانى فيه حياً.

- كذلك اعتبر فريق آخر عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٣٧٩-٣٩٥م) نقطة تحول فى تاريخ الإمبراطورية لأنه اعترف بالمسيحية ديانة رسمية، وقسم الإمبراطورية بين ولديه اركاديوس وهونريوس إلى قسمين شرقى وغربى، وأصبح كلاهما منفصل تماما عن الآخر.
- فى حين يتساءل البعض لماذا لا يكون عام ٤١٠م تاريخا لسقوط

الإمبراطورية، وهو العام الذى استولى فيه آلارك – ملك القوط الغربيين – على روما بعد حصار شديد مرات ثلاث أو معارك عنيفة دامت ثلاث سنوات، وعاثت جموعه فى أحياء المدينة فسادا ولم تسلم منه غير دور العبادة. وفزع العالم لسقوط روما فى أيدى هذا المتبربر، وظن المسيحيون أن نهاية العام قد اقتربت، غير أن آلارك ما لبث ان توفى فى ذات العام؛ وخلفه على عرش القوط (اثولف) الذى تزوج من أخت اركاديوس امبراطور الشرق، وكانت قد وقعت أسيرة فى يده فى روما، وتدعى جاللا بلاسيديا Galla Placida وقد لعبت دور الوسيط بين القوط والرومان حتى توفيت فى عام ٤٥٠م.

- ويقترح فريق عام ٤٥٥م تاريخا لسقوط الإمبراطورية فى الغرب – وهو العام الذى تعرضت فيه روما لمخاطر من قبل جيوش الوندال، التى عبرت إليها من شمال أفريقية، ولم ينسحبوا منها إلا بعد امتصاص ثرواتها، وكان الانسحاب بفضل تدخلات البابا ليو الكبير.

وأخيراً يرى غالبية المؤرخين، أن عام ٤٧٦م هو أصلح وأنسب عام، يحدد نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، وذلك على أثر الانقلاب الناجح، الذى دبره القائد الجرمانى ادواكر Odovaker ضد امبراطور الغرب روميلوس، فقد حاصر مدينة بافيا، مقر قائد القوات الرومانية ووالد الإمبراطور الصغير روميلوس. ثم سقطت روما فى يده فى عام ٤٧٦م، وأجبر الإمبراطور على المثول أمام السناتو واعتزال منصبه ، ثم قام بنفيه إلى نابولى. وأرسل بعد ذلك الشارات الخاصة به إلى الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١م) الذى كان يحكم فى القسطنطينية وأرسل السناتو بدوره ورسالة إلى إمبراطور القسطنطينية يعلن فيها:

- أنه ليست هناك حاجة إلى إمبراطور فى الغرب لأن إمبراطوراً واحداً قوى فى القسطنطينية كفيل بحماية النصفين الشرقى والغربى معاً.

- كما أبدى السناتو فى ذات الرسالة موافقته على نقل العاصمة من روما القديمة إلى روما الجديدة (القسطنطينية) ، وتنازله عن حق مجلسهم فى انتخاب الإمبراطور.
- طالب السناتو أيضا بمنح أدواكر حق حكم إيطاليا تحت إشراف إمبراطور القسطنطينية مع منحه لقب البطريق.

وهكذا لم يشهد القسم الغربى امبراطوراً يحكم فى إيطاليا منذ انقلاب ادواكر مما يجعل عام ٤٧٦م نهاية للإمبراطورية فى الغرب، مع ملاحظة أن انقلاب ادواكر جاء منسجماً مع حصيلة التطورات العامة فى المجتمع الغربى، وانهيار الإمبراطورية من الداخل، لأنه من المستحيل القضاء على إمبراطورية كانت عريقة ذات حضارة عظيمة من الخارج ما لم تكن تلك الإمبراطورية قد قضت على نفسها من الداخل.

المراجع

المراجع العربية والمعربة

١) إبراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨م.

٢) _____ : تاكيتوس والشعوب الجرمانية، ترجمة إبراهيم على طرخان، القاهرة ١٩٥٩م.

٣) اسحاق عبيد ، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة ١٩٧٢م.

٤) بينز ، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، ومحمود يوسف، القاهرة ١٩٥٧م.

٥) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج١، هذا نقله إلى العربية محمد على أبو درة، ج٢، نقل إلىالعربية لويس اسكندر، القاهرة ١٩٦٩م.

٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى ، جزءان، القاهرة ١٩٧٥م.

٧) سيد أحمد على الناصرى، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، القاهرة ١٩٩٨م.

٨) عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوربية، بيروت ١٩٦٨م.

٩) على الغمراوى ، ملحمة البطولة الجرمانية، القاهرة ١٩٧٢م.

١٠) فشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ج١، ترجمة محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٧٥م.

١١) محمد محمد مرسى الشيخ، الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى، اسكندرية ١٩٧٥.

١٢) محمود محمد الحويرى، رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة ١٩٨١م.

١٣) موريس بيشوب، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ترجمة على السيد على، القاهرة ٢٠٠٤م.

١٤) هارتمان ، باراكلاف، الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم، اسكندرية ١٩٦٦م.

ثانياً : المراجع الأجنبية

Baynes N.H., Decay of the Western Power and its Causes, In Universal History of the world, ed. By Hammerton, vol.4, London.

Bury, A History of the Roman Empire from it Foundation to the death of Marcus Aurelius , London 1930.

Jones, A.H.M., The Decline of the Ancient World, London, 1975.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, New York, 1955.

Lot, F., The End of The Ancient World and the Beginnings of The Middle Ages, London, 1931